الباب الحادي والعشرون

في كتمان السر

كتمان السر خوف العاقبة:

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [سورة يوسف: ٥]، تلك كانت وصية النبي يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام، لما قصّ يوسف رؤياه على أبيه، فاستكتمه لما لتلك الرؤيا من دلائل اجتباء الله يوسف عن سائر إخوته.

ومن وصايا الرسول الكريم ﷺ في كتمان السرّ قوله ﷺ: «**استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود**».

وقد نصح العقلاء الحكماء بحفظ الأسرار وكتمانها، وقالوا: إن خير من يحفظ الأسرارهو صاحبها، وقالوا: إذا أفشيت سرّكَ مَلَكَكَ، بعد أن كنت تملكه، وقال الحكماء: صدرك أوسع لسرك، وسرك دمك فانظر أين تريق دمك، ومعنى ذلك أنه ربما يكون إفشاء السرّ سبباً لسفك دمك.

والسرّ أمان في عنقك، وأنت مطالب بحفظه، كما تطالب بحفظ الوديعة والأمانة المالية والعينية،فإذا حدّثك إنسان بحديث واختارك لموضع سرّه من بين إخوانه وأصدقائه،واستكتمك إياه فقد وجب عليك كتمان السرّ وحفظ الأمانة، وحرّم عليك أن تفشيه، وإلا كنت خائناً للأمانة مفشياً للسرّ ساعياً بالفساد متسبباً فيما ينجرّ عن ذلك من الشرّ.

وقالوا: إن من علامات الرجولة ،ومتانة الخلق وقوة النفس حفظ الأسرار، فهو يدل على جوهر الرجل ومعدنه الأصيل،وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها،فكذلك لا خير في إنسان لا يكتم سرّه، وقالوا: صدور الأحرار قبور الأسرار، وقال الشاعر في كتمان السرّ:

ولها سرائر في الضمير طويتها نسي الضمير بأنها في طيّه

فيجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسرّه من صدرغيره بأن لا يفشيه، وقالوا: إن الظفر الحزم، والحزم بإجالة ا لرأي،والرأي بتحصين الأسرار، ومن كتم سرّه كانت الخيرة في يده، ومن أفشى أسراره إلى الناس هان عليهم إذاعتها، ومن لم يكتم سرّه استحق الندم، ومن استحق الندم صار ناقص العقل، ومن دام على

هذا رجع إلى الجهل، وقال الشاعر:

إذا ما ضاق صدرك عن حديث فأفشاه الرجال فمن يلوم
إذا عاتبت من أفشى حديثي وسري عنده فأنا الظلوم
وإني يوم أسأم حمل سرّي وقد ضمنته صدري سؤوم
فلست محدثاً سرّي خليلي ولا نفسي إذا حضرت هموم
وأطوي السر دون الناس إني لما استودعت من سر كتوم

الرسول القدوة في كتمان السر:

ومما يذكر من كتمان السر، ففي العام الثامن للهجرة النبوية، نقضت قريش العهد الذي عقدته مع رسول الله ﷺ في العام السادس الهجري،عام صلح الحديبية، أمر الرسول ﷺ أهله أن يجهزوه؟، فدخل أبو بكر الصديق ﷺ على ابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما، وهي تعدّ بعض جهاز رسول الله ﷺ.

فقال أبو بكر: أي بنيتي أأمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه، قالت: نعم. فتجهز قال: فأين ترينه يريد؟. قالت: لا والله ما أدري، فمن هو أبو بكر في حرصه على كتم أسرار رسول لله ﷺ، ومع ذلك فحرصاً من السيدة عائشة أمر المؤمنين على كتمان سرّ رسول الله.

ثم إن رسول الله ﷺ، أعلم الناس أنه سائر إلى مكة المكرمة، وأمرهم بالجدّ والتهيؤ، وقال: اللّهم خذ العيون والأخبارعن قريش، حتى نبغتها في بلادها.

أبو بكر وكتمان السر:

وجاء تحت عنوان: تفسير ترك الخطبة، في صحيح البخاري أن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، حين تأيمت حفصة بنت عمر، قال عمر: لقيت أبا بكر. فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ، فلقيني أبو بكر، فقال: إنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أني قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها فلم أكن لأفشي سرّ سول الله ﷺ، ولوتركها لقبلتها.

وفي رواية أخرى، أن حفصة كانت قبل النبي زوجاً لخنيس بن حذافة السهمي، وكان بدريًّا توفي بعد بدر، وقيل بعد أُحُد، والأول هو الصحيح، وأن عمر بن الخطاب ﷺ عرضها على عثمان بن عفان بعد وفاة رقية بنت رسول الله ﷺ في العام الثاني للهجرة النبوية، فقال عثمان: لا حاجة لي في الزواج.

ثم عرضها على أبي بكر الصديق فسكت وَلَمْ يرجع له بقول، حتى وجد عمر في نفسه،فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال النبي: عثمان سيتزوج خيراً من حفصة، وحفصة سيتزوجها من هو خير من عثمان.

ثم خطبها رسول الله ﷺ، فأنكحها إياه، وقد بين له الصديق، بعد خطبة النبي ﷺ لحفصة، أنه ما منعه من الجواب إلا أنه كان يعلم أن رسول الله ذكرها، وأنه كره أن يفشي سرّ رسول الله ﷺ، وتزوج عثمان بن عفان، أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، في العام الثالث للهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

ويحكى أن العباس بن عبد المطلب ﷺ، قال لابنه عبد الله: يا بني إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدنيك،فأحفظ عنّي ثلاثاً: لا تفشِ له سرًّا، ولا تغتابن عنده أحدا، ويطلعن منك على كذبة، حقا إن من حدّث بالسِرّ أفشاه كان مملوكاً له آثما بما جَنَى لسانه، وقد كان الخيار له قبل الإفشاء.

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، ما أفشيت سرّي إلى أحد قط فأفشاه فلمته،إذ كان صدري به أضيق، وعاب الأحنف بن قيس التميمي على من يفشي السر، ثم يطلب من الذي حدّثه به كتمانه، وقال : يضيق صدر الرجل بسّره، فإذا حدث به أحداً قال: اكتمه عليّ؟.

وكانوا يحذرون من مساررة من يحبّ الاطلاع على الأسرار، وخبيئات البيوت، ويرون في طلبه للسرّ علامة على سوء المقصد، وخبث الطوية ،وقال صالح ابن عبد القدوس: لا تودع سرّك إلى طالبه، فالطالب للسرّ مذيع ، ولا تودع مالك عند من يستدعيه ، فالطالب للوديعة خائن.

وليس من الحزم أن تفشي سرّك إلى كل أحد، أو تثق بكل إنسان، فهذا دليل الجهل والحمق، والحذر يقتضي أن تخفي السرّ حتى من صديقك إن ظننت أنه ربما إذا وقع بينكما سوء تفاهم أفشى سرّك، ويكون أعرف بالمضرة.

كتمان السرّ لتحديد المسؤولية:

ويروى أن بعض ملوك العجم استشار وزيريه فقال أحدهما: لا ينبغي للملك أن يستشير منا أحداً إلا خالياً له، فإنه أموت للسرّ وأحزم للرأي، وأجدر بالسلامة، وفي رواية أدعى للسلامة، وأعفى لبعضنا من غائلة بعض.

فإن إفشاء السرّ إلى رجل واحد أوثق من إفشائه إلى اثنين، وإفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة، لأن الواحد رهن بما أفشي إليه، والثاني مطلق عنه ذلك الرهن، والثالث علاوة فيه، فإذا كان السر عند واحد كان أحرى أن لا يظهره رغبة ورهبة، وفي رواية: (رهبة للملك ورغبة إليه)، وكان عند اثنين دخلت على الملك الشبهة، واتسعت على الرجلين المعاريض، فإن عاقبهما عاقب رجلين بذنب واحد، وإن اتهما اتهم بريئاً بجناية مجرم، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له، وعن الآخر ولا حجة له عليه، وقال أحد الشعراء في حفظ السرّ وكتمانه:

يا ذا الذي أودعني سره ... لا ترج أن تسمع مني

لم أجره على فكرتي ... كأنه لم يجر في أذني

عاقبة إفشاء السر:

ومما يروى في عقوبة من أفشى السر، أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، ولّى قدامة بن مظعون الكوفة، ولم يُعلم بذلك أحداً، فتوجهت امرأة مظعون، إلى دار المغيرة بن شعبة تطلب له زاداً، فقالت: أقرضونا زاداً لراكب، فإن أمير المؤمنين عمر ولّى زوجي قدامة الكوفة.

فأخبرت زوجة المغيرة زوجها، فجاء المغيرة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، فاستأذن للدخول عليه، فأذن له، وقال: يا أمير المؤمنين، ولّيت قدامة بن مظعون الكوفة، وهو قوي أمين، فقال عمر بن الخطاب: ومن أخبرك بذلك؟. قال المغيرة: نساء المدينة يتحدثن به، فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للمغيرة: إذهب وخذ منه العهد، ذلك جزاء من أفشى سرّه إلى امرأته.

النساء وكتمان الأسرار:

وقد قيل لا تطلعوا النساء على أسراركم، تصلح أموركم، وقد هجا الشاعر الحطيئة أمه لإفشائها السرّ فقال:

أغربالاً إذا استودعت سراً وكانوناً على المتحدثينا

وقيل مبالغة في كتمان السر، إذا كلمت بالنهار فانظر من عندك، وإذا كلمت بالليل فاخفض صوتك، وقال الشاعر:

لا يكتم السر إلا من له شرف والسر عند كرام الناس مكتوم
ألسّر عندي في بيت له غلق ضلت مفاتيحه والباب مختوم

وقال شاعر آخر:

لعمرك كتمان الفتى سرّ ما نوى أعف وأدنى للرشاد وأكرم
وأجمل في بث الحديث مقالة وأحسن في الأخلاق دوماً وأحزم

وقال أحد الحكماء: لا أنس آنس من استشارة عاقل ودود،ولا وحشة أوحش من مخالفته،لأن المشاورة والمناظرة بابا بركة وخير، ومفتاحا رحمة، ومن استشير فليشر بالنصيحة، وليجتهد بالرأي ويلزم الحق، فالحق أحق أن يتبع، وليجعل المستشير كنفسه بترك الخيانة وبذل النصيحة ، وكتمان السر.

قال الشاعر:

ومن الرجال إذا زكت أحلامهم من يستشار إذا استشير فيطرق
حتى يجول بكل واد قلبه فيرى ويعرف ما يقول وينطق